

# الأغراض التي يجب أن تتوفر لها في أغانينا

للأستاذ محمد عبد الجواد

المدرس بمعهد التربية للفتيات

في هذه الأيام ، وفي هذا العصر ، عصر النهضة والتجديد ، هبت عاصفة شديدة من النعمة على أغانينا ، صرفت أو كادت تصرف كثير من الناس عن سماعها ، ودعت بعضهم إلى استحسان وسماع الأغاني الأفرنجية وموسيقاها ، وقد حمل هذا بعض الكتاب والأدباء والمفكرين والمتمننين ، على خوض معركة جدلية ، وقف فيها المهاجرون موقف النقد والتجريح ، فعابوا الأغاني في لفظها وموضوعها ، ولحنها وإيقاعها ، كما تذرع المدافعون عنها بأعداد لا تحصى مثالبها ، وتمسكوا بمغالطات لا تغني قليلا عن العمل على إصلاحها .  
وقد هيات لي مجلة الشؤون الاجتماعية فرصة الكتابة في " الأغراض التي يجب أن تتوفر لها في أغانينا " .

كان أثر الأغاني في سالف الزمن ، محصوراً في دائرة ضيقة ، حين كان الشخص يعني إما لنفسه ، أو لعدد من السامعين محدود ، في مجلس خاص أو حفل عام ، وكان في استطاعة السامع أو المصالح أن يتقاضى عما فيه من عيوب ، إلا أن الأذاعة اللاسلكية بعد الحاكي جعلت للأغاني صيغة عامة شاملة ، لا تغني صغيراً ولا كبيراً ذكراً كان أو أنثى ، عالماً أو جاهلاً - من أن يعاني ما فيها من لواذع وآثام ؛ فهي مفروضة عليه أيما حل إذا حبسها عن منزله أدرسته في الشارع ولقتهى ، وطاردته في الملعب وانتهى وتبعته في منزله ، وغشيت في كل مكان .

أما ومصر اغتية تبغى المجد وترغم النهضة العربية ، وأغانيها تدع حتى من المثلث الأفرنجية ، فلا عجب أن نهض بها الهيئات الاجتماعية ، وتولوا ما تستحق من عناية مجودة وجهد مشكور ، لتبوء مكانها بين أغاني الأمم الراقية ، التي سمت أغراضها وحمدت آثارها .

وذكر كان الحكماء والفلاسفة قد وقعوا بالأغاني قديماً عند لذة الروح لوجدانية ، وبسط النفس الإنسانية . فواجبنا أن نذهب بها إلى أبعد من ذلك ، ونحول مقاصدها إلى أهداف كثيرة .

( ١ ) فأقول ما نتوجه في أغانينا ، وهو قوامها الروحي - أن نجعلها أداة للترفيه وتسلية ، وتسرية والارتياح ، فتكون باعثاً للسرور والنشاط ، موصلة لصفاء نفوس ومحو مآثران على القلوب ، داعية لروح الفكاهة في نفوس سامعين .

فله مني جانب لا أصيحه ولنهو مني وعكاه جانب

وفي الاستطاعة وجود التسلية والفكاهة في الأغاني مع البعد عن المحزون والخلاعة .  
وطبيعة النفس البشرية النزوع إلى الغناء ، في أوقات التعب والعناء . فيجد العامل  
فيها خيرا معين على عمله ، وسلوى وراحة منه بعد فراغه ، كما يجد المفكر من سماعها موقفا  
لرأيه ، والعاجز وسيلة لاستنهاضه ولأخذ بيده . ألا ترى ما يفعل الحذاء بالإبل ؟ إنه  
يحدد نشاطها ، فتستخف أقدامها ، وتمد أعناقها ، وترهف آذانها ، وتسرع في سيرها !  
وليس الإنسان في ذلك بأقل حساسية من هذا الحيوان .

ومن الناحية السلبية ، يجب أن نبعد منها عوامل الكآبة والحزن ، وآثار اللوعة والشقاء ،  
فلا بكاء إلا لتوبة . ولا أسف إلا على ما فرط من معصية .

بربك قل لي ماذا تترك من أترسي في نفس السامع هذه الأغنية ؟ :

يالوعى يا شقاي يا ضنا حاني ضاع الأمل من هواي وانشغل بالي

( ٢ ) الأغاني دروس محبة إلى كل نفس ، ميسورة لكل فرد ، فوق أنها جزء من  
الأدب الشعبي . لذلك يترجم أن يكون من أغراضها ترقية اللغة وتقويمها ، وترتفع عن العامية  
الندرجة إلى درجة من العربية الصحيحة ، بحيث لا تلبو عن فهم السامعين ، ولا تعاو على مداركهم  
وفي مكنة اللغة الفصحى أن تنزل إلى أقصر الأفهام لتؤدي من المعاني ما يدركه العامة .

هذه أغنية لا يستعنى فهمها على طبقت الشعب الدنيا ، وألفاظها عربية صحيحة :

قد بدا الفجر الجميل يملأ الدنيا ابتساما

أين يا بحر الخليل كي أحياه سلاما

وكذلك أغنية أسبوع المولود :

صانك الله وزانك يا وليد الأمل

ورعى الله زمانك في حياة العمل

ولما كان الشعب مولعا بتريده ما يسمع . يلاحظ أن تكون مفرداتها مختارة عذبة ،  
وعباراتها راقية مؤدبة ، وأسلوبها شائقا ممتازا ، وأن تستر ألفاظها مفصوح معانيها .

أين قول بعضهم : " تعالى بين أحضاني " من قول شوق عفا الله عنه :

لم أدر ما طيب العناق على الهوى حتى ترفق ساعدي فظنوك

فإن رقة اللفظ واختيار الكلم . وهذا الرداء الأدبي للتعبير ، كاد يبعدها عن الغزل  
المكشوف ويخرجها من حيز الأغنية المبتذلة .

أما مثل الأغنية :

يا كابتن أحب نجومك      يا كابتن أموت في هدومك  
كلامك حامى يا كابتن      يهز الألب طوالى  
وشكلك ميري يا كابتن      وكشفك كله بيلاى  
فألفاظها أخفف من معناها .

وقد أعجبتنا قصيده غنائية قوية ألفها الدكتور زكى مبارك ولحنها وأنشدها الفنان الأستاذ عبد العزيز محمود جاء فيها :

ياملك الحسن عزت دولتك      ورعت آلمة الحب صباك  
شرعة الإسعاد فينا شرعتك      وهدى الاشفاق والعطف حواك

( ٣ ) وأهم أغراض المغاني ، ما يتصل بالمعاني . فيجب أن تكون معانيها مستقيمة عفة ، لا غبار عليها ، ولا شية فيها . تتناول موضوعاتها كل ما يرمى إلى تربية الشعب وتنقيفه وتهذيب العامة وتأديبهم . فتحض على التدين والفضيلة ، وتطرى مكارم الخلق ، وتمجد حميد الصفات ، وتشيد بذكر الخدمات العامة والاشترافك فيها ، وتبث في نفوس الشباب روح التضحية والحماس ، وتبعث فيهم الشهامة والمروءة ، تربي الذوق والأدب ، وتصور معاني الجمال ، جمال الطبيعة وجمال الفن .

( ١ ) أين الأغاني الخلقية ، والأناشيد الدينية ؟ لم لا تردد في الصباح والمساء ، وعند كل مناسبة ، للصوم والزكاة والحج والجهاد ، الجهاد في سبيل الله والوطن ؟

يا أمة الاسلام      حى على الصيام  
يا شيعة المختار      يا عصابة السلام  
الصوم للابرار      وافى ولكرام

هذه أغنية للصوم ذكرتها على سبيل التمثيل .

أين أغاني الاسعاف والمواساة ، والحلال الأحمر ؟ لم لا نتغنى بفضل إغاثة المهوفين ، وإعانة المتكويرين ، ولم لا تسهم الأغاني في تخفيف ويلات الانسانية ، وتلطيف يؤس البؤساء ؟ شيبا أرى أم ذلك طيف خيال ؟ لا ! بل فتاة بالعراء حيانى

أين نشيد الاتحاد ؟ أين أغاني الطوائف والجماعات ؟ أين أناشيد الشباب ؟ أين أناشيد البطولة ؟ وذكرى الأبطال والمجاهدين ، والعلماء العاملين ، والأساتذة المحنطين :

قم للعلم وفه التبجيلا      كاد المعلم أن يكون رسولا

ولبست الأغنية ما تقول :

خوجة البنات علمهم شغل الآلات ونغمهم  
فقد ردؤت لفظا ، وقبجت معنى ، وسامت أديا .

أين أغاني التاريخ القديم والحديث ؟ والوقائع والمعارك ، والغزوات والفتوحات ؟ هل  
لنا من يذكرنا في أغانينا بالآباء والأجداد لنحذو حذوهم ونعمل عملهم ؟ :

بنيني كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

(ب) مشاهد الطبيعة في مصر بديعة جذابة ، بهيجة خلابة ، تدعونا لملاحظتها  
والتمتع بها . وهي وفيرة متنوعة ، أمامنا ووراءنا ، فوقنا وتحت أرجلنا ، حولنا  
وفي متناول أيدينا . وإذا فاتت الأمهات أن تكحل أعين أطفالها بمشاهداتها في صغرهم  
فليشرف المغمون أذانهم بصوتها وتصويرها في كبرهم ، وليوجهوا إليها الأنظار ، فهي  
أخصب مرعى لتربية الأحاسيس والمعوقات ، وأغزر مادة لتصوير معاني الجمال .  
لم لانسع في أغانيها ما يصف شروق الشمس وغروبها ، حر الصيف ولفظ  
المصايف المصرية ، قر الشتاء ودفء المشاتي ، نسائم الربيع وبساتينه ،  
وأزهاره ووروده ؟

أين أغاني الشمس الساطعة ، والكواكب المتلألئة ، ونمو الهلال حتى  
يصير بدرا كاملا ؟

ساعة في الأصيل على ضفاف النيل ، والطيور تغرد ، حانة إلى أوكارها وفيها  
قراخها ، صوت النواخير على حوافي القدير ، وصوت السواني على الجداول  
والترع ، الريف ومزايده ، الحقول وما فيها من خضرة سندسية وسنابل ذهبية ؛  
كل هذه المناظر وكثير غيرها جذيرة بالتسجيل في أغانيها .

(ج) يجب أن تضرب الأغاني في الحقيقة بسهم ، وتأخذ منها بنصيب ، فصور حياة  
الأمة الاجتماعية والاقتصادية ، وتمثل نشاط الشعب في أعماله الزراعية والصناعية ،  
تشخص العلل وتصف لها الدواء ، تنذر بعواقب الإسراف والتفريط ، وتبشر  
بجودة الغلات ووفرة المتوج :

نورت يا قطن النيل يا حلاوة عليك يا جميل  
اجمعوا يا بنات النيل يلاه ده ما نهش مثل قطن ماشالله  
لوزته جميلة حاسبوا عليها حلاوة أصيلة والخير فيها

ده حرر يا بنات قطننا والله

زريد كثيرا من هذه الأغنية بعد إصلاحها . وكذلك الأغنية :  
يا لى زرعوا البرتقال يلا اجمعوه آن الأوان يلا يلا  
وما أبجل هذه الأثسودة المدرسية لسنا بل القمح :  
سنا بل البشر والتهاى ومبعث الخير والرجاء  
نقد جنينا بك الأمانى أمانى العز والرخاء

أين أنت أيها الحداد ؟ من لى بمن يتغنى بصوت مطارقت ، وانعرق يسيل  
من نواحي جسمت ، والنهب يتوهج أمامك ، والحديد المحمر طوع يديك ،  
والشرر يتناثر حوليك ، فيقدرك السامعون ويفهموا معنى المثل ، إن لم تحرق  
جارك بشررك ، آذيته بدخانك ؟

أين نداء الباعة بأصواتهم الرخيمة . وغناء العهل المشجى فى الشوارع والطرق ،  
وفى الميادين والمعابر ؟ وأحيرا : فتكن الأغاني لسان صدق فى الدعاوة لتاجر  
الصادق ، والعصانيع الحاذق ، وتكن إعلانا للبضاعة الوطنية ، والمشروعات النافعة ،  
ولتكن لسان حال الأمة فى الرضا والسخط .

( د ) أما أنا شيد المههد وأغنى الترقيص ، فما أحرأها بالعناية والنظر فيها ، فهى أقول  
درس يتلقاه الطفل عن أمه ، وهو وإن لم يفهم معناها ، فلا ريبه فى أن نعمها  
يرك أثر فى نفسه :

لا تعشق الأذان إلا نعمة كانت عليها فى المهود تدار

هذا إلى أنها تدل على نفسية الأم ، وهى صورة مصفرة لما عليه أمتها  
من تقدم وتأخر .

تقول أم الفضل بنت الحارث وهى ترقص ولدها عبد الله بن عباس :

تكلت نفسى وتكلت نكرى إن لم يسد فهرا وغير فهر

بالحسب الوافى وبذل الوفر

تعس فى هذه الأغنية طبيعة المرأة فى الدعاء على نفسها وعلى ابنها ، إن لم يكن  
سيد الناس أجمعين ، يسودهم بحسبه وبذل مائه الكثير .

ولقد كنت أسمع تلميذات المدارس يتغنين بأثسودة انجليزية نصها :

Spin, Dame, Spin

Your bread you must win

Twist your thread and break it not

وترجمتها : ” غزلا غزلا يا سيدة ، كسب الوقت عينك وجب ،  
لنى خيضت لا تقطعيه “ .

فعمجت من أن أول ما تذكر الأم الإنجليزية لطفها كسب لقمة العيش. وقد سررت لما سمعت أغنية مصرية من إحدى العجايز ، وكأنها صنو الأغنية الإنجليزية وهذه صورتها :

يا محلة حلى حلى      يا محلة عالني صلي  
يا محلة واغزلي الككان      يا محلة جوزك عريان

والحلة خشبة طولها ذراع ، يحل عليها الغزل بعد غزله ، لعدّه عليها ، لأن الغزل كان يباع بالذراع أو لألف . وقد كان الغزل من عمل العجايز في قرى مصر ، قبل القرن العشرين ، يوم كانت الأتول اليدوية منتشرة هناك .

ولله دتر إحدى أمهات مديرية البحيرة ، حين ترقص ولدها مستهضة إياه :

يا ولد يا ولد      حس طينك في البلد  
ودي البحيرة دربكت      وانغز آمت عالعرب

وتلك طفلة من تلميذات المدارس تغني لطفها :

إن الفراش الناعما فيه      تنام دائماً  
نم يا حبيبي سالماً      نم آمتا نم آمتا

ولو كان للتربية الجندية أثر في نفوسنا لقال له :

إن الفراش في الخيم في ظله ترقى الأمم . أو : إن الفراش في العرا في ظله ساند لورى  
وليس فينا من لم يسمع الأغنية :

يللا تنمس يلا تنام      وأجيب لك جوزين حمام

لعمري ، ماذا يفعل الطفل بزوجي الحمام ؟ بأست الأخلاق ما تضمنته . فالشره عند  
الوفاء ، وخلف الوعد محتم .

أما الأغنية :

لما قالوا ده غلام      قلت يا ليلة ظلام  
لما قالوا دي بنية      قلت يا ليلة هنية

فالعجب من أن الأمم تعتر بأبنائها ، وأمهاً لا ينشئن الفتية ، خوفاً من لجندي .

تلك صور متباينة لنشأة الطفل على يدي أمه . فلتختر منها المثل الصالح .

(هـ) ولكن أين أغاني الحب ؟ أغاني الهجر والبعد ، والوصل والقرب ، والعدل  
والموم ، والشكوى والأين .

نقد عبث العرف بلفظ "الحب" نخرج به عن معناه الشريف ، الى معنى ضيق مادي

دنيء ، بفعله هو والعشق المحرم على حد سواء ، وقد ألبسه التفرنج والمدنية الكاذبة ثوبا  
زائفاً من مقدمات الزواج يخفيه عن أعين الدين .

صرفوا معناه عما بين الأب وابنه ، وحب الوالدة لولدها ، وحب الأخ لأخته والزوج  
لزوجه ، والصديق لصديقه ، والزميل لزميله ، وحب الناس بعضهم بعضا . أين المحبة  
الدينية ؟ وحب المرء لوطنه ومواطنيه ، وحب الخير لذاته ، وحب أداء الواجب وحب  
الإنسان لأخيه الإنسان وحب السلام بيم جميع الأرض ؟

أما حب الصوفية للذات العلية ، فليس في العامة من يدرك حقيقته ، وإذا نحن أنشدناهم :

قلوب العاشقين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرون  
وأجنحة تطير بغير ريش أنى ملكوت رب العالمينا

فقد تطربهم الألفاظ ، ولا تصل إلى قلوبهم المعاني ، وهل فيهم من يدرك الموقف في :  
إذا ما بدت يسلى فكلى أعين وإن هي ناجتني فكلى مسامع

هذا بعض ما ينبتغيه من الأغاني في معانيها وموضوعها .

( ٤ ) أما لحنها وإيقاعها ، فهو حدتها القاطع ، ولسانها الناطق ، به تفسح الأغاني  
عما لا تؤديه عبارتها من المعاني .

رفقا أيها الملحنون والمغنون ! . الكم لا تتركون الشعب بجمله وقره ومرضه فتمطرونه  
وابلا من النغم الحزين الباك ، والدنيا مملوءة بالسرور والسعادة .

إن نفحات الخنوع والضراعة ، والتكسر والتبع ، لم تعد ملائمة لروح التربية ، في الحيل  
الناشئة ، وكل امرئ حر يربأ بأبنائه وبناته ومائر أفراد أسرته ، عن سماع مثل هذه الأنغام  
والألحان تقولون إن الشعب يحب هذا اللون من الفناء ، واستعداده هو الذي يوجهه  
التوجيه المناسب . حجة داحضة ، وعذر أقبح من الذنب !

الأمة الآن ناهضة ، وحق لها أن تكون مرحلة ، والمرح يدعو إلى النشاط ، والنشاط  
طريق الصحة ، والصحة أول خطوة نحو العلم ، فالعقل الحكيم في الجسم السليم .

أين الأغاني الباسمة ؟ أين الأغاني الضاحكة ؟ . أين النغم الذي يرقق العواطف  
والوجدان ؟ أين النغم الذي يهيب بالشبان لنجدة الأوطان ؟ والشباب عدة الأمة عند  
الشدة ، وسيفها المسلول للذود عن حياض الوطن !

أيها المغنى !

أنت في مجلس غنائك أبلغ من خطيب ، وأفصح من واعظ ، فاتق الله في صناعتك  
وأعلم أن الأغاني كما كانت سما ناعما ، فقد تكون ترياقا شافيا ، فلتتخذ منها طبا للنفوس  
المريضة ودواء للأرواح الشاردة !

غذوا أيها المغنون شرة الشباب بالمثل العليا ، وربوا فيهم نحوه الرجولة . يؤتم الله أجرا حسنا .

تلك نظرة عجا فبا يجب أن نتوجه في أغانينا .

(٥) ويجدر بنا، قبل نهاية هذا المقال، أن نعترف بأن بعض الأغاني الحديثة، ترفعت قليلا عن السخف في التفكير، وابتعدت عن البداية في التعبير، ومالت عن اللحن المخلص ولكنها مع قلمها وضآلتها كالبرق الحافظ، تظهر بقاء ثم تختفي، كأنها تتوارى نجيلا من تلك الأغاني المبتذلة الذائعة كالرجل الصالح يتقى مجامع الآمين!

وإنا لنحمد للهيئات المسئولة ما فرضت على الأغاني من رقابة، ولعل يدها تمتد إلى الإيقاع وأنغم، وهو العيب الذي شكاه منه بعض دعاة الإصلاح. كذلك نلاحظ أن مختارات الاذاعة سائرة في طريق التحسن، ولو أنها لما تحررت من كل المحظورات، ونرجو أن تخطوها خطوة جريئة على ضوء هذا التفكير الجديد.

وفي المدارس نهضة مشكورة، تسير بالأغاني سيرا حسنا وتتجه اتجاهها تطيب له نفس الإصلاح الاجتماعي. فأطفالها وتلاميذها أخذوا يتغنون بأناشيد وأغان صحيحة العبارة ومعانيها بعيدة كل البعد عن الأغاني المقوتة:

نغم الطبيعة في أغانيهم وما  
تملى الرياض وتنشئ الأزهار

فإذا عينت وزارة المعارف بإنتاج كثير منها، وتعاونت مع مجلة الشؤون الاجتماعية على طبعها ونشرها، وتيسير تداولها، وكثرة إذاعتها، آتت ثمرتها وبلغت رسالتها. ولكن هذا كله، لا يعني عن المبادرة بعلاج أغاني العامة، والمساعدة إلى إصلاح الأغاني الشعبية وكيف السبيل إلى ذلك؟

لسنا مع من يرى سن تشريع للأغاني، لأن هذا معناه تحكيم الحكومة في عواطف الأمة وشعورها. بل يجب أن نعتد في ذلك على إرادة المستمعين، وذوق الملحنين، واختيار المغنين، مع إجازة الأدباء والشعراء من المؤلفين المجيدين الموهوبين.

فإذا صحت عزيمه المستمعين وانصرفوا بحق عن سماع تلك الأغاني الخليعة الماجنة، وثاروا عليها وصمموا على ألا ينصتوا إلا للأغاني الجيدة، كان عملهم هذا أول خطوة نحو الإصلاح المنشود. ولتعهد الوزارة إلى جماعة من لأدباء والملحنين والمغنين، باستعراض جميع الأغاني الموجودة لعدم انقاسد منها، وتواريه التراب. أما ما كان صالحا منها بعض الصلاحية، فإنها ترقع نحرقة، وترقى فقه، أو تعيد صوغه وسبكه. على أن تخرج مع ذلك جملة طيبة من القطع الجيدة التأليف والتلحين، في مختلف الموضوعات والماسابات، وشتى النواحي والأغراض. ثم تلتقى الوزارة بعض المغنين المتأثرين، فيذيع كل منهم ما يناسبه من تلك الأغاني المختارة أو الموضوعية، في فترات قريبة منتظمة، وساعات معينة محدودة.

وبهذا تصير الأغاني دروسا نافعة مفيدة، تبغ بالأمة إن شاء الله أرقى درجات الكمال.

محمد عبد الجواد

مدرس معهد التربية للبنات